خطرات
فى السياسة والتاريخ
-٢-

الارستوقراطية

وقد كانت الارستوقراطية فى انجلترا سياسية فى جوهرها ، وإذا أضفنا إلى ذلك أسباباً أخرى ؛ لم تكن مجرد طائفة منعزلة عن الشعب ، حتى أن الطابع الخاص الذى لابد منه للتمييز بين الطوائف الاجتماعية قد محى تماماً . ولقد أصبح هذا الاعتبار مسوغا كما قال أحد الأعضاء الأقدمين فى مجلس اللوردات لزميل جديد رقى حديثاً من مجلس العموم إلى اللوردية .

« اعلم أننا جميعاً هنا كالاصدقاء » — وقد يكون ذلك حقاً لا شك فيه من الوجهة الاجتماعية .

ويجدر بنا ان نذكر أن ما وصفه اولو الرأى السديد واصحاب البصيرة أن من أكبر الاصطلاحات الجليلة فى الشئون العامة التى اختطتها أية حكومة وهو اصلاح التحول فى الترشيح والتعيين فى الخدمة المدنية من الرعاية والمحسوبية لمقامات الملوك والأشراف ، الى المنافسة العلنية — قد تم فى ظل مجلس وزارة مكون من خمسة عشر عضوا قال عنه المستر غلادستون أنه ليس من المستطاع ان تقوم هيئة اكثر ارستوقراطية فى التشكيل منه ، اذ لم يكن من بينها عضو لا ينتمى الى الاشراف الا المستر غلادستون وحده . وقد اتخذ المترجم عن حياته (١) ذلك العمل الجليل مثلا كيف ان هذا الرجل العظيم قد جمع بقدر لم يتأت لغيره ، بين السليقة الديموقراطية المتأصلة فى نفسه البعيدة الغور ، وبين روح الحكم الصالح : اى سليقة المساواة الشعبية والروح العلمية للرجل الادارى المستنير .

الملكية والجمهورية .

ولم تلهب أية فكرة فى كل مجامع الالفاظ المتعلقة بالحكومة نار النشاط والحماسة

(١) وهو اللورد مورلى نفسه مؤلف هذه الرسالة

فى صدور البشر ، بقدر لفظة الجمهورية المعبود ، اللهم الا لفظة الملكية وفكرتها -

وقد أوجدت فكرتا الجمهورية وحق الملكية من الانصار من دافعوا عنهما فى كثير من المواطن بنفس الحماسة الملتهبة والاسلوب العقلى المحكم والبرهان العملى السديد . فى حين انك تجد أن أوجه الخلاف بين النظم المتعددة التى طبعت كلها بطابع الجمهور المشترك والتباين العميق فى الجوهر والأثر والنظام العملى ، كثيرة جهد الكثرة فقد كان كرومويل حاكما بامره (دكتاتورا) اكثر منه رجلا جمهوريا . وكانت البندقية تختلف فى نظامها اختلافا جوهريا عن فلورنسا والجمهورية التى نشأت بعدان تخلفت مقاطعات سويسرا من النير النمسوى ، كانت فى شكلها واساسها مغايرة للنظام الهولندى بعد التغلب على اسبانيا (١) وهناك اختلاف بين بين هيكل الجمهورية الفرنسية الاولى والثانية و بين هذه والجمهورية الثالثة و بين الاثنين الآخرين و ولايات أمريكا المتحدة . ولست بحاجة الى الكلام عن جمهوريات امريكا الجنوبية حيث تسير الحضارة اللاتينيه الكاثوليكية فى سبيل متعرج غير مألوف ، وحيث لا تدل الجمهورية كنظام للحكم على اكثر ما نفهمه من الملكية فى بلاد البلقان المضطربة .

ولننتقل الى دعاة الحق المشروع وهو اسم اخترع للتعبير عن سلالة آل بوربون حينما زالت الجمهورية الاولى والامبراطورية الاولى من عالم الوجود بمعاهدة فينا سنة ١٨١٥ فاذا كان مدلول فهمنا عن الحكومة المشروعة هو انها حكومة حازت التملك والسلطة مستندة الى صفة معترف بها مكتسبة من الوراثة المنتظمة ، او المعاهدات ، او الفتح المعترف بمشروعيتها ، فاى الحكومات الملكية الآن تتوافر فيها صفات المشروعية اذا قيست بهذه المعايير !!! فوراثة العرش فى انجلترا كما يعلم الكل تستند الى ثورة هى نتيجة احدى تلك الوسائل السياسية التى ترتفع لدرجة الضرورة ، ولو ان امراء البيان والمفكرين من بيرك الى ماكولى قد اسبغوا عليها طلاء وافيا من قانون ونظام يعملان باستمرار غير منقطع . وفى إيطاليا و بلجيكا والسويد و النرويج نرى الملك مكللا بتاج صاغته ايدى الثور

الرأى العام

وحتى كلمة الرأى العام المقدسة — ملكة العالم كما اسموها — لذات معايير عديدة وقد

---

١ — بعد تغلب مقاطعات البلاد المنخفضة

قال احد الكتاب فى الشئون الدستورية ممن لم تكبت قوة العلم فيهم روح الفكاهة (ولا تخلو السياسة ولا القانون من مواطن عديدة للتفكه) ان رأى البرلمان هو رأى الأمس ورأى القضاة هو رأى اليوم الذى قبله، أى ان القضاة يحكمون حسب سوابق الرأى والحكم وقوانين التفسير والشرح أما البرلمان فيشرع ويقضى بالضرائب وينظم الشؤون الخارجية تلبية لنداء الحركات التى تجرى خارجه . وكذلك مناقشة الفوائد التى تنجم عن أى نظام أو مضاره . فمن ذا الذى يضع حداً فارقا بين قيمته القانونية والنظرية ، وبين تجربته عمليا ، أو يعمل حسابا لنفسية القائمين على تنفيذه ولقيمة الاعتبارات التقليدية المتعلقة به ؟

فالقائم على ذلك فى السياسة هو صوت جمهور المنتخبين . وهل هناك أسباب تدعوا الى اعتبار أغلبية الأصوات أو تعددها أقوى من صلاحية هذه القاعدة السياسية عمليا ؟ وهل دلت التجربة على صلاحيتها فعلا حتى لجأ القوم الى استنباط وسائل اخرى - من استفتاء الشعوب ، لاستفتاء جمهور المنتخبين ، وغير ذلك من الوسائل التى تفرض على الشعب قسرا ، ويقصد بها تشتيت القوى المجتمعة لهيئة نيابية حاكمة ؟

وقد أكد كاتب (١) من خيرة كتاب العصر الحاضر أهمية العنصر الغير العقلى فى السياسة - كالوازع والغريزة ورد الفعل، ويرى عن عقيدة ان فن السياسة التجريبي (٢) ينحصر غالبا فى تكوين الرأى باستقلال الاستنتاج غير الواعى (٣) والذى لا ينطبق على العقل استقلالا عن قصد وتعمل ، والحيقة على الأقل هى أن المشتغلين بالتجاريب السياسية يرون من الصعب التكهن بالعوامل الحاسمة

وليست الصحافة بالمعيار الذى نأمن له . اذ الواقع انه فى ثلاثة انتخابات برلمانية عامة منذ ١٨٧٤ كانت النتيجة مفاجأة كبرى لأولئك الذين اتبعوا الرأى الذى اختطته الصحف الاكثر انتشارا فى اهم مناطق البلاد . فكانت هذه الصحف الكبرى فى واد واغلبية المنتخبين فى واد آخر . ولم يكن اللورد بيكونسفيلد (٤) ليتوقع الهزيمة الكبرى التى لحقته سنة ١٨٨٠، وقد قال «كلارندون» عن «بالمرستون» انه اخطأ فى اعتبار تصفيق الشعب دليلا على رأى البلاد الحقيقى ، وليس ثمة شىء من الصعوبة بحيث يستعصى على التقدير او التحقيق . فالرجل الخيالى الذى ينشد الكمال ، يثور أو

---

١ المستر جراهام ولاس مؤلف كتاب « الطبيعة البشرية فى السياسة »

٢ أمسى لايتصل بقوأعد ومقاييس

٣ subconscious

٤ دزرائيل اليهودى أصلا

يبتئس حينما يجد الجماعة تعيره اذنا صماء ، وفى باب التهكم الأدبى يشبهون عدم اكتراث الشعب بكل حديث من الآراء ، بالكلاب تنبح الاغراب ، او الحمار الذى يفضل حملا من التبن على عشر قطع ذهبية . وقد يكون من السهل ان نجد حجة ندافع بها عن هذين الحيوانين الامينين ، وعن الجمهور . ولو رجعت الى الحقيقة لوجدت أن التشبيه غير ذى جدوى . ولو أنه ليس هناك ادنى شك فى ان الآراء والاحكام الناضجة الممحصة والعقول التى صقلها المران القويم ، تقابل دائما بالترحاب . وطبيعى أن مشاغل الحياة القاسية المجهدة ، هى اول العين العادية . بيد ان المزاج الناضج متى كان سديد المقصد صبورا ، فانه لا محالة متسرب الى الاعماق ، كما أن العملة السليمة من الشوائب ، لا تعدم سوقا . وهناك أشكال عديدة متباينة من الحكومة النيابية تعد بالعشرات قائمة على مثلها من الحالات الاجتماعية والتاريخ . وليس من يدعي للرأى العام فى أحدها أو كلها التقديس أو العصمة . فى حين ان السخرية بالرأى العام ماهى الا النزاع مع الحياة البشرية ليس الا ، وكلنا يعرف نقائص الرأى العام ومساوئه فى السياسة والخلق السياسى مثل الاقتناع المهلك بالأجوبة السهلة عن أسئلة صعبة معقدة والمسارعة كما يقول « هوبس » الى أن تتغلب على العقل اذا كان العقل ضدنا ، والمغالاة الشنيعة فى تقدير التافه من الاشياء ، والحملة الشنعاء على شىء اليوم ، ثم رجوع القهقرى لا يقل شناعة فى اليوم اللاحق . والمال يبذل جزافا لتأييد معبود الساعة هذا الاسبوع ، ثم اللعنات الشائنات تصب على الجواد الخاسر فى الاسبوع التالى . ثم العجلة وجبن الخلق وعبث العمل دون جدوى . بيد انه لو توهم كائن من كان أن هذه النقائص والشرور لصيقة بالانظمة البرلمانية أو الديموقراطيات ، فقد فاته درس صحائف تاريخ الاستبداد الحزبى والسلطة الشخصية المطلقة والبيروقراطية المركزية وحاشيات الملوك البراقة وأبهة أبلطتهم

ذكرى ميلاد روسو

ويوافق اليوم (١) ذكرى ميلاد روسو منذ قرنين . وقد اقترح فى مجلس النواب الفرنسى فى الاسبوع الماضى فتح اعتماد من الخزانة العامة للاحتفال به ، فأدلى فريق بحجة أنه من السخف كل السخف تعظيم أب النظريات الهدامة ، بينما فى الوقت نفسه يطلق رجال الشرطة الرصاص ويقتلون عصابات الفوضويين فى ضواحى باريس .

(١) ألقى هذا الخطاب فى الثانى عشر من شهر يوليو سنة ١٩١٢

وكان الفريق الآخر يؤكد رأيه وهو أن روسو كان السباق فى بيان نظريات العدل الاجتماعى الحديثة، وأن أثره فى الآداب الفرنسية والألمانية والروسية خالد لا يبلى، بل يتجدد على مر الزمان . فهناك بعض الكتاب فى عالم المؤلفات السياسية لا تتجاوز عدد الأصابع عداً ، يجل فى التاريخ منزلة الكتب إذ هى بالفعل وثائق ، كمؤلف جروتيوس (أب القانون الدولى) المعنون « فى حقوق الحرب والسلم » (١٦٢٥) و « ثروة الامم » لآدم سمث (١٧٧٦) و « العقد الاجتماعى » أحد هذه الكتب بلا جدال ، كما كان كتاب « أنظمة المسيحية » الذى كتب فى جنيف قبل عهد روسو بقرنين . إلا أن كالفن المبشر بالبروتستانتية فى فرنسا ، لم يكن نظرياً كما كان روسو ، فقد كانت عزيمته الأساس الذى شيد عليه كنيسته . ولقد كانت عزيمته التي لا تقهر ، وقوته التى لا تتزعزع ، عمدته فى مكافحة صعاب الساعة . ولو اقتصر الأمر على التعاليم وأوضاع العقيدة الكهنوتية ، لما أصبح هذا الرجل إحدى القوى المسيرة لشئون البشر فى تاريخ العالم . ويجب علينا أن نلاحظ بهذه المناسبة ، إن عبادتنا للدول العظمى، وهى إحدى أهواء زماننا هذا ، لا يمكن ان تعمينا عن التبصر فى الحقيقة الاساسية التى تنحصر فى أن ثلاث دويلات ليس لها من المطامح والآمال الاستعمارية القليل أو الكثير — هولندا وسويسرا واسكوتلندا — هى التى أنقذت مبدأ الحكم الذاتى الذى آذن بالزوال عند ماظهر المذهب البروتستانتي على مسرح العالم . وكانت جنيف الرائدة الاولى لهذه الدويلات الثلاث ، اذ انجبت روسو وكالفن معاً .

محك العقل النافذ هو الحقيقة الراهنة

وقد حمل بيرك Burck حملة شعواء على روسو وعمله بقسوة لا تقل فى وحشيتها عن تنديده بشارل الثانى فى نفس الصحيفة من كتابه . واظهر ارتياحه اذ لم ينل روسو فى هذه البلاد ذاك الحب والتقدير اللذين كانا من نصيبه فى كافة بلاد القارة الاوروبية ، واستمر برك (كما رآه الشاعر وردسوورث) يندد ويحذر ويسخر من كل الانظمة المؤسسة على الحق المعنوى المجرد ، معلنا جلال الانظمة والقوانين التى قدسها كر الايام ومر العشى . وعلى حد قوله ، بدأ يهدم الآراء المستحدثة ، مرسلا عليها وابلا من الاحتقار والسخرية . بيد أن مين Maine وهو أرفع عضو فى الهيئة التى تناصر نظرية بيرك فى انجلترا يرى أن روسو مع جهله وقلة فضائله وضعف خلقه ، قد طبع شخصيته على

صحائف من التاريخ لاتبلى . وذلك بقوة خياله المتقد الحى ،وصادق حبه للانسانية ، مما يحدونا على الدوام ان نغتفر له الكثير من زلاته .

وقد أحسن« بتام » اذ قال إنه اذا أردت أن تكسب البشر الى جانبك فلا بد من أن تحملهم على الاعتقاد أنك تحبهم ، وان خير طريق لحملهم على محبتك أن تحبهم حقيقة وان انشودة قس « سافوى » التى بهرت مشاعر أوروبا وضربت بنغمة جديدة على أوتار الخيال.قد انبعثت من نفس العقل والقلب اللذين صاغا القنابل السياسية التى خدمت اغراض روبسبيير وفريق من الرجال هم خير منه وأعظم شأنا . وبذلك هبت عاصفة معركة عالمية جديدة لم تحمل فى جوهرها شررا جديدا، اذ كانت تدور حول اعادة تعديل فى الانظمة الجديدة التوافق بين المناسبات الجديدة من الافكار والآراء والانظمة القديمة العهد وأن أسماء هوبس وفلمر وسدنى وملتون وهارنجتون ، لكافية لان تعيد الى ذاكرياتنا المناقشات حول أصول القانون والحكومة ومبدإ (قانون الطبيعة هو قانون الانسان) وغير ذلك من الآراء السائدة فى اوروبا منذ قرن مضى . وإن مؤرخ الفلسفة السياسية ليرجع بنا الى قرون قبل ذلك . فالتاريخ بتقاليده وعاداته وأساليبه والانظمة المقررة فى جانب ، وقانون الطبيعة وحقوق الانسان فى جانب آخر ، وهذا الشقاق والنزاع لم يمتد الى السياسة لاغير ، بل تغلغل فى الفلسفة والفن والآداب والكنائس والتعليم . فى أوضاع وأشكال لاعداد لها ، لأنه لامرية فى أن الظواهر والمؤتمرات التى تنفذ الى بواطن السياسة ، يسرى نفاذها الى ماحولها

وهذه الظواهر تحمل طابع عصر من أجل عصور التاريخ ،التى هى بمثابة الدعائم التى يرتكز عليها أو النجوم التى بها نهتدى فى تعرفنا تاريخ العالم ودراسته بتعاقب الحقب والدهور

ولد الانسان حراً

تعرفون جملة روسو فى العقد الاجتماعى — تلك الجملة التي تسرى فى الجسم سريان الكهرباء — ولد الانسان حرا بيدأنه فى كل المواطن يرصف فى القيود والاغلال .وبينا يفرض الانسان أنه سيد الغير إذ به لايقل عنهم عبودية .ولا يجب أن نكلف أنفسنا مؤونة تحليل وصف الانسان بانه ولد حرا فى زماننا هذا الذي قررت فيه الوراثة بين قوانين الوجود الحيوانى . إذ أن هذه الفكرة ترجع إلى زمن أقدم من عصر

روسو وأثرت فى عقول وكتابات مفكرين سبقوهم أحرى منه بالاعتبار والتقدير . والأقرب الى الصواب فيما يتعلق بالاوربى المتمدين فى زماننا الحاضر على الاقل ، أن نقول إن الانسان ولد وله من العمر ألفان من السنين وهذا هو معنى التاريخ عند الانسان العادى ،إذا كان عنده من الوقت والصبر ما يحملانه على التفكير أبعد من الساعة التى هو فيها وهنا يجول فى خاطرنا رأى جدير بالاعتبار ونحن فى معرض الكلام عن الحرية، وهو ان روسو أكد أن واجب كل انسان هو ان يعاهد نفسه على الاعتقاد فى وجود ذات آلهية قادرة على كل شىء رحيمة بالبشر،وحياة أخرى حيث الابرار فى نعيم والاشرار فى بؤس مقيم. عقيدة تخرج عن دائرة المعتقدات الدينية إلى نطاق عواطف الألفة بين البشر. بحيث إذا انحرف عنها كان جزاؤه النفى أو الاعدام .وقد فصلت المقصلة رؤوس أصحاب المبدأ العقلى فعلا سنة ١٧٩٤ طبق مبادىء روسو بالحرف الواحد دون مواربة كما هلل سرفنوس وسط النيران التى أضرمها كالفين وطارت رأس سرتوماس مور بأمر هنرى الثامن

ولا بد من التعقيب على قول روسو المأثور بقول لايقل عنه جرأة فى التعبير ، بل يفوقه صدقا فى القول ، وهو أن الانسان ولد غير متسامح وقد يبدو لنا أن التسامح عند العقل العام هو آخر الآراء حقاً

حظ البادر والتربة التى بذر فيها

من السهل لدى الناقد البصير فى زماننا هذا أن يصوب على كتاب كالعقد الاجتماعى وابلا من المنطق والنظريات والمقارنات ودروس التاريخ ، كما كان من السهل عند الدكتور جونسون أن ينتقص من قدر مرتبة جراى ـــ بيد أن هذه القصيدة ظلت متعة خالدة وسلوى لقلب المتعب . فقد تناول كتاب روسو بالنقد التحليلى القيم المستفيض ،أكثر من عالم من جهابذة الفلسفة السياسية والقانونية فى زماننا هذا (١) بيد أن الذى يعنينا أكثر من المنطق أو الجدل الكلامى إنما هو التاريخ ـ علاقات الحاضر بالماضى والسوابق المهمة ، والقوى الخارجية ، والحوادث وتسلسل الحوادث الى نتائجها النهائية ، وما اكثر ما ينبعث سوء التقدير عند السياسى ، كضيق الافق والخطل فى الرأى عند المؤرخ سواء بسواء ، من اهمال الحقيقة المفعمة باصالة الرأى

١ كالفيلسوف الدكتور بوزانكويت فى كتابه النظرية الفلسفية للدولة سنة ١٨٩٩

و نور البصيرة القائلة بان العواطف والظروف التى تسير الرأى وتسبقه ابعد غورا واعمق اثرا من آراء البشر نفسها . ومما يهمنا الوقوف عليه فيما يختص بعصرنا بل وكل عصر ، ليس هو آراء العصر الخاصة ، بل العناصر المركبة من ذاك الشعور الخلقى والخلق نفسه ، تلك العناصر التي تنمو فيهما الآراء كما فى تربتها الملائمة (١) وهذه الكلمات مليئة بالقول الحق وسامى الادراك ، مما هو خليق بكل باحث فى تاريخ البشر ان يتدبرها .

ان قوة اى كتاب سياسى راجعة الى انطباقه على الظروف والمناسبات كلما برزت هذه على مسرح الزمن . وفى احدى روايات دزرائيلى السياسية يصيح احد اشخاصه قائلا ما أغرب الحوادث فاصغرها اكبر شأنا من اسمى الخيالات واوسعها نطاقا : ومهما بعد هذا القول عن الفلسفة الهادئة ، الا ان فى جوفه حقائق ناضجة للنقاد . فالمحصول يتوقف على التربة بقدر ماهو راجع الى البذر . فليست الاهمية كل الاهمية فى قوة الدليل المعنوى والاستنتاج ، بل فى الحقيقة الراهنة (ونصفها وليد الصدفة) وهى ان هذا الدليل يمدنا باسلحة مقنعة هي مثال الاعجاب وقوة التأثير وهى تستخدم للهجوم او الدفاع المتواصل أو تعطينا طائفة من القواعد والسنن تتطلبها حاجة الساعة او الهدى الذى يملى هذه الحاجة . وقد شبهت الكتب والآراء والمعتقدات بالزهور فى الحديقة فليس خير الادلة وأقواها هو الذى يسود دائما ويتغلب . فان البستانى الذى يلهم الصواب فى اختيار فصل الزرع هو الذى يفوز بالجائزة . وما اكثر الوقت الذى يصرفه الكتاب (حتى خيارهم) فى سك عملة لن يكون نصيبها التداول . وفى سيرنا من القبة الفخمة التى تحوى الكتب المطبوعة فى دار المتحف البريطانى الى آثار الموتى فى قسم آخر ، تنتابنا الفكرة احيانا : وهو ان ليس هناك كبير فرق بين الكتب التى هزت العالم وقتا ما ، وبين جثث ملوك مصر المحنطة .

الحادثة هى التى تتغلب فى آخر الأمر

فلم ينل اى كتاب حظ الانتشار والنفوذ السريع مثل كتاب شاتوبريان « روح المسيحية » (١٨٠٢) فحتى هؤلاء الذين يرحبون باثره يعدونه من سقط المتاع اذا قيس بمعيار قوة الجدل والمناقشة . وقد اسر صديق للمؤلف ان وصفا مزوقا من

---

١ مقالات ماركلباتيسون

رحلاته الواسعة وعبارة خلابة وفكرة مصقولة ، تجذب اليه قراء اكثر عددا ، مما لوحوى كتابه كل علوم البندكتيين. فاستمع لنصحه، واذا بالمعلومات التاريخية فى كتابه ليست اكثر قيمة من الطلاء الخارجى .

وأن الفرنسيين الذين يفكرون جديا فى روح المسيحية يجدون بغيتهم فى بعض مواعظ «بوسوية» و بعض صفحات من بسكال وسان أوغسطين أكثر من كل ماخطه يراع شاتوبريان وعبقريته .بيد انه حدث أن عقد بونابرت اتفاقيته (كونكوردا) مع البابا يوس العاشر ولعب دوره بأبهة وفخامة فى كنيسة نوتردام معلنا ارتباط الدين بالدولة وعقد صلح اميان مع انجلترا . وكانت كل هذه العوامل بشائر صفو فى سماء السياسة الملبدة بالعواصف والغيوم وبسم الزمان لمصائر الناس المعتمة . ولم يكن كتاب اسعد امنه حظا أو أكثر توفيقا لساعة تأليفه . غير أنه لم يستطع أن يعمر أو يمتد نفوذه طويلا. وكما هي الحال فى الكتب ، كذلك شأن المبادىء فيقتطف الناس افرادا وجماعات من القواعد والمبادىء ومايترتب عليها من النتائج البسيطة بقدر الحاجة و بقدر مايلزم لاغراضهم . وأن الحدود الممكنة للاستنتاج المنطقى لتتسع أو تضيق أوتنبذ ظهريا بقدر ماتمليه الضرورة الماسة. وخير المقدمات والنتائج المنطقية لتكتسح أمام الابواق المعلنة لدعاوى الامن العام والنظام الاجتماعى وغيرها من الاسماء المستملحة لحكم الارهاب

الوثائق الثلاث الهامة فى التاريخ

وقد ميز قاض أمريكى الوثائق الثلاث الهامة فى تاريخ البشرية وهى الوصايا العشر والموعظة على الجبل واعلان استقلال أمريكا .

وربما لم يكن قصد القائل تقرير حقيقة بقدر ايراد عبارة مأثورة . إلا أن جبل طورسيناء وجبل الجليل وميدان دار الدولة فى فيلا دلفيا على كل حال مراكز بارزة فى سير الانسانية . ومما يجب ادراكه الضياء الذى صحب انبثاق الكلمات المفعمة بالآمال والآراء البراقة والمواعظ الحارة وقوانين الاصلاح على طوائف انهكتها المظالم غارقة فى لجج الهموم والمخاوف ألهبتها عواطف الهوى الدينى والجنسى والحرية وآمال التملك. وهذه هى الميادين الخالدة لصراع البشر . وليس هناك أسهل من تبيان المغالطات فى إعلان حرية أمريكا .وقصارى القول كما قرر مؤرخ أمريكى بحق، هو أن هذا الاعلان كان منبعثا عن الروح الصادقة للبلاد فى ذاك الوقت. إلا أن السليقة السياسية السليمة

أوحت الى توماس بين Thomas Paine رسالة هى أبعد الرسائل السياسية أثراً واسماها، الحس العادى، وجهها الى مواطنيه الانجليز، من طراز مستعمرى أمريكا فكانت قذيفة قوية سلطت على سير الآراء الثورية

وحى الساعة

إن الخلاف على خير أساليب الحكم وميزان الانظمة فى الدولة، حتى حول الحقوق الطبيعية، مسائل قديمة نسبيا . ومن طبيعة الانسان ميله الى استيحاء هذه المبادىء المنقذة حسب ما تتطلبه الساعة والقضايا . الخلقية تشتعل ويضطرم أوارها كما لو كان ذلك الامر صدفة. فتلهب عواطف الجماعة، وقد انقضى سبع وثمانين سنة قبلما أمكن رئيس مشرب بمبادىء أسمى من مبادىء « جفرسن » من حمل مواطنيه على اعتناق عقيدته: وهى إن لم تكن سياسة الاسترقاق خاطئة ، فليس على وجه الارض شىء خاطىء ، ولذا فليست الكتب النظرية هي التي تروج فى الازمنـــة العصيبة على جانبي المحيط الاطلسى .

ومن ذا الذى يهتم الآن بنقد كلمات خطاب جتسبرج الشهير عن امة ولدت فى مهد الحرية وكرست نفسها لفكرة ان كل البشر خلقوا متساوين . بيد ان أقدر الاقلام وافصح الالسن كما قال «بيرك» لم تتناول ببيانها السياسة النظرية ولم توجه أقوى النفوس جهودها وعملت وجاهدت وعانت ماعانت ، بل انها لم تجد جولاتها الصادقة الا فى مسألة الضرائب دون غيرها . وقد بذلوا الجهد الجهيد لوضع المبدأ الآتى كقاعدة اساسية . وهو انه فى كل الحكومات الملكية يجب ان يملك الشعب ، بالوساطة أو مباشرة، حق التصرف فى أمواله ، والا لم يبق للحرية من ظل او أثر (١) وليس لذلك معنى ان الضرائب والرسوم هى كل شىء، اوان محصل الضرائب شر اعدائنا وان اقوى مثال لذلك هو بيرك نفسه . فبعد كتاباته الباهرة عن النزاع مع المستعمرات الامريكيه (وهى اعمق ما كتب فى الحكمة السياسية فى آدابنا) عصفت العاصفة التى ساعد أنتصار المستعمرات على هبوبها بعنف وشدة ، على فرنسا الملكية. وقد تنبأ بذلك بيرك بحدس صادق وحس لم يخطىء ، ووصف باسهاب الدمار الذى سوف يحل بالبلاد وأصبح موضع نجوى مهاجرى الاشراف من الفرنسيين الذى هبطوا على نهر الرين ، ومهبط وحى كتاب الرسائل الجدلية السياسية « كجنتز » الذى خدم «مترنيخ» أو قاده فى مؤتمر فينا. وما ألهب كتابات بيرك فى ـــ افكاره ـــ والصلح القائل للملوك ـــ لم تكن الضرائب

(١) خطابة بيرك فى موضوع التصالح ١٧٧٥

المجحفه ، بل انقلاب التقاليد التاريخية العليا المألوفة . وقد وجدت كل قوى اوروبا الرجعية اللسان الذى يعبر عنها . فى حين انه فى البحث عن السبب والنتيجة ، يجب ان لانخلط بين الصوت والقوة الناتجة عنه ، فوصف « لامارتين » للجيروندان ، قبيل سنة ١٨٤٨ ، ووصف «تيارس» لحالة الامبراطورية الاولى قبيل انشاء الثانية، وتصوير مسز «ستو» للرقيق وحالة الارقاء ، عامة هذه كتب مزجت الأسلوب والطريقة العقلية بالعاطفة والهوى ، وقلبت العاطفة الملهبة الى صراخ وضجيج . فى حين ان كلا منها كان لها أثرها العملى .

بقاء الاصلح

ان من السهولة بمكان لدى أقل النقاد السياسيين تعمقا فى البحث ، ان يدرك من حالة العالم كما هى الآن كيف انه من السهل (لابل من المحتم) ان تتولد نتائج سياسية هائلة من كتب وابحاث يظهر أن لاعلاقة البتة بينها وبين السياسة . ومن ذا الذى يستطيع قياس أثر «دارو ين» وكل ما كتب عن مذهب بقاء الاصلح فى سياسة العصر . وليس ذلك فى السياسة العملية وحدها بل اثرها الحاسم فى توجيه آراء مدارس التاريخ النشيطة ذات النفوذ العظيم . وليست خاطرة عارضة هى التى تجمع بين « دارون » ونفوذ بسمارك كعاملين توأمين فى تغيير مزاج الجماعات من القرن التاسع عشر للقرن العشرين . ولا يجب أن يغيب عن بالنا إن هذا التحول العارض على مسرح الدول والحكومات من عصر فضى إلى عصر برونزى ، قد اقترن بانتشار شعور انسانى أعمق وأبعد أثرا نحو الاطفال والحيوان والمصابين بأمراض قاسية والمسجونين والعبيد الذين يرصفون فى اغلال الرق فى مجاهل أفريقية . وكل من هو بحاجة إلى الشفقة والنجدة والمساعدة يحفزها إلى العمل شعور قلب الانسانية المشترك . ولم يقتصر الامر على الدم والحديد . ولم تقف قسوة المنطق السياسى أو الاجتماعى وشدة وطأتها دون حد أو تحفظ . فما أعقد العروة الوثقى وأخفاها وأدقها ، تلك التى تربط أفكار البشر ومشاعرهم خفية وسرا

الحاكم صدفة سعيدة

و كما هو الحال فى الكتب كذلك شأن مشاهير الممثلين على المسرح التاريخى . ولما رجع فكتور هوجو من منفاه منذ أربعين سنة ونيف مضت ، لم يتمالك بعض ذوى المقدرة والادراك الذين لم يعجبوا كثيرا بالرجل ولا بفنه ، من الشعور والاعتراف

بأن الرجل الذى تحوطه هالة من حماسة ثلاثة أجيال، لابد من أن تكون توافرت فيه صفات جديرة بالتكريم والسمو ، وإن ذلك الرجل الذى يعرف كيف يوقظ فى البشر اسمى المشاعر ويحرك فيها أنبل الدوافع ، مهما كانت صفاته الأخرى، لجدير بنا أن نكرمه. فهو الموقد الذى فيه تضرم نار الحمية فى روح الشعب وتظل حية متقدة ، وان امتزاج هـذه المصالح السامية لجدير بعناية الناقد أكثر من محتويات كتابه . ففخار هوجو راجع إلى مافيه من السياسى بقدر مافيه من الشاعر. وهذا سر شهرته الواسعة التى لا تقارن الا بفولتير . ففى كلتا الحالتين كان القلم سيفا

مايرمز اليه البطل

وقد قيل لأحد كبار الساسة الانجليز فى وقتنا الحاضر لقد كانت حياتك وأعمالك متجهة إلى بقاء روح البلادحية. وهذا يعدل كل شىء آخر فى السياسى. وإذا طرحنا الشخصية جانبا أو أقللنا من أهميتها أصبح تاريخ التقدم الاجتماعى شيئاً أجوفاً لا معنى له . ولقد نتجت عبقرية أوجست كونت قائمة من أسماء أبطال العالم والمحسنين إلى الانسانية أملتها الروح العقلية والتى قال فيها أشهر معارضى نظام كونت البنائى أن ليس هناك مفكر أوسع إدراكا وأشمل عطفا وتقديراً وتبجيلا لكل ضرب من ضروب الخدمات التى اسديت للبشرية(١) وان سجلا للعظماء لايحوى اسماء لوثر ولا كالفن ولا نابليون ، لمدعاة للتساؤل وطلب الايضاح. بيد أن تقديره الخاص كان مبنيا على الخدمات الحقيقية الايجابية التى أسداها أبطاله لصالح المجتمع الانسانى .

و هناك صلة منشؤها العمل والمكان تربط أبطاله بعضهم ببعض . وهذا يخالف كل المخالفة عبادة الأبطال ذوى الأعمال الرنانة . و يختلف من جهة أخرى عن التعلق باسم معلم من معلمى الانسانية أو الموحين اليها الذى هو من أجل الصفات جمعاء فى خلق البشر . فاختر أبطالك كما تشاء فى أى ميدان من ميادين الفكر. أو العمل سواء أكان من بين خمسمائة أو خمسة فقط . فأول سؤال ، أو بمعنى آخر آخر سؤال ، يحدد هذا الاختيار ، هو ما يرمز إليه بطلك .

و فى الواقع ليس هناك ما يعود بالضرر القاتل كتحويل التاريخ إلى عبادة تشبه عبادة الأصنام . فعبادة الابطال التى روجتها عبقرية كارليل الشاردة الشاذة بين جيلنا الحاضر بسهولة تخطت حدود المعقول فى التاريخ والسياسة ، لتفسد على المرء

---

١ وهذه القائمة منسقة تنسيقا بديعا فى كتاب فردريك هاريسون ـ السجل الجديد لعظماء الرجال ـ تاريخ حياة ٥٥٨ عظيما فى كل عصر وأمة وفق مبادىء المذهب الايجابى

دائرة تصوره . بيد أنه لا مراء فى أن وحدة الآراء والمصالح عند الرجل العظيم ذى الرأى السامى ، القادر على عظام الأعمال ، لما يؤثر فى تصورنا تأثيراً يقرب من افتتاننا بتناسق وجمال أعظم مبتكرات الفن الخلابة — من القطع التمثيلية الخالدة إلى الملاحم الفخمة وقطع الموسيقي الجامعة لمختلف الأصوات والأنغام (السيمفونى) وبدائع النقش ، على أن معايير الفن أدلاء غير صالحين فى اختيار أبطال السياسة . وقد قال أحد العارفين عن نابوليون أنه كان كله خيال فى خيال . فقد خلق إسبانيا خيالية وانجلترا خيالية وكتلكة خيالية ونظام مالى خيالى وفرنسا خيالية . وعقبه كارليل الذى خلق نابوليون خيالى كى نعبده عبادة الأبطال .

التحول بالصدفة فى التاريخ

يجدر بنا أن ندرك أن قانون « التحول بالصدفة » الذى يجد التفكير فيه تفسيراً لتولد أنواع جديدة ، قد يصدق خارج دائرة علم الحياة . فالرجل المبرز فى اليوم العصيب يظهر كأنه آخر حلقة فى سلسلة المصادفات ، بكل مافيه من مهارة ومواهب وعبقرية وإرادة وبصيرة قادرة على خلق الطوارىء والسيطرة عليها أو إحداث الانقلابات فى نظم الحياة ووسائلها . وقد قال اسكندر الأول امبراطور روسيا لمدام «دى ستايل» فى آخر الأمر « ماأنا إلا صدفة سعيدة » والتاريخ الحربى حافل بمئات الحالات الدالة على التحول العجيب فى الحظ والفرص والرياح والأجواء مما لم يتوقع حدوثه أو كان من المحال توقيعه . وقد كان أكبر القواد أول المؤمنين بالحظ الأعمى الذى يسيطر على لعبتهم الهائلة ، والأخطار التي تنتاب الرجال حين يلعبون بقطع النرد الحديدية فى لعبة الحرب القاتلة . فسواء أكان عظماء الرجال أول الحلقات فى سلسلة المصادفات أم آخرها — ساسة كانوا أو قادة حروب أو مفكرين أو مخترعين — فالمحرك المسير يظهر كأنه وليد الصدفة البحتة ، كالنجم المذنب أو الشهاب . لا كالنجم الثابت — وهذه الصدفة ناشئة عن اقتران شخصية خاصة بالفرصة الملائمة .

واذا كان لأى انسان أن ينفر من فكرة ان مجرى التاريخ مما يمكن تحويله بصدفة من مصادفات الزمن ، فيجدر بنا أن نذكر أن رجال الكنيسة المتمسكين بمبادئهم ومفكرى الساسة ، مافتئوا يسهبون فى بيان الخفاء الذى لا يمكن ان نشق حجابه ، والذى يحيط

باصل الجماعات البشرية وسيرها وعملها والانظمة الحاكمة عند الانسان . وحينما قال قيصر روسيا عن نفسه أنه صدفة بحتة ، لم يعن بذلك أكثر من أنه شيء خفي وقوة لا سبيل الى تفهم منبعها . وكيف لنا أن نبهت ويستولى العجب على مشاعرنا عند التفكير فى الصدفة وأثرها فى شئون الحكم اكثر من الدهشة من ظهور جبابرة العبقرية فى عالم الموسيقى كباخ وبيتهوفن ، او تألق العقول النيرة فى ميدان الفن أو العلم أو الابتكار كنيوتن وواط وغيرهم

المنهج التاريخى

وقد قيل بحق عن المنهج التاريخى فى البحث أن من بين آثاره الواسعة الرجوع بعنصر المصادفة الفردية الى حجمه الصحيح وأهميته الحقة ، فهو يعتبر الخلق القومى والظروف القومية كالقوى الخالقة مما يجب اعتبارها كذلك حقا وعدلا. ويقول أحد رجال القانون متهكما إنه خيرا للانسان أن تثبت عليه تهمة سرقة شيء تافه ، من أن تنقضه طريقة التفكير على المنهج التاريخى

إن المنهج التاريخى سائد فى ميدان البحث والحكم على المسائل الاجتماعية . وهو يحذرنا اننا لا يمكننا أن نفسر العوامل والظروف التى نتناولها جميعاً بالبحث دون الرجوع الى منشئها واعتبار الوجهة البيولوجية فيها ويستعيض عن الآراء الجامدة المشتقة من المعنويات البحتة بالبحث عن شيئين: أولهما إيجاد العلاقة بين الحقائق الهامة والاراء الاجتماعية التى تسود فى طائفة أو جماعة معينة فى وقت معين : وثانيهما تطور نظام عن نظام آخر فى المعتقدات العامة والاذواق والعادات وانتشار الثروة وسريان القوانين بين الجماعات وكل فنون الحياة . وما هذا القول الا توسطا فى الحقيقة المعروفة وهى أن القوانين والانظمة ليست وليدة الصنع ، بل نتيجة النمو ، وما يسرى عليها بحق ينطبق كذلك على الآراء واللغة والعادات التى هى منبعها ومحكها . ومن السهل أن نسوق القول بان سيادة المنهج التاريخى لها مضارها فدراسة المعتقدات والانظمة والقوانين وأساليب الفن والمراحل المتعاقبة التى تمر فيها ، تنمو وسرعان ما تصبح بديلا عن النقد المباشر الموجه لها حسب طبيعتها وميزاتها والبحث عن حقيقة حادثة من الحوادث التاريخية واهميتها وتفسيرها ، ولوانه يجب أن يعتبر أمراً حيويا لا غنى عنه يصبح شيئاً ثانويا بالنسبة للبحث عن كيفية وقوعها. ولذلك فهناك اكثر من مدرسة واحدة

تعتبر المنهج التاريخى مغالى فيه . يقولون بحق ان فى هذه الطريقة فى جوهرها تؤول الى رفض كل ما هو مجرد واحلال كل ما هو نسبى بتواصل واستمرار . وهذه الطريقة لاتنطبق على قواعد الخلق ، شأن كل أداة علمية وشأن الطبيعة نفسها على حد معنى من المعانى فهي دامية السن والمخلب ، لا تعنى الا ببقاء الأقوى وليس التاريخ المقارن بأسمى ضمير آمن التشريح المقارن. فنحن نرتب المثل العليا فى جداول حسب نوعها وطبيعتها بيدأنهافى هذه العملية تفقد النور الحيوى الذى تنبعث منه والهالة المقدسة التى تحيط بها . وحتى كبار الرجال تسفر التجربة عن انهم خياليون فى ميدان السياسة . كهؤلاء الذين يسيرون فى نومهم ، وان الأقوال التى تساق جزافا « كحقائق السياسة الخالدة » وأولى الحكم وما اليها ، لاقوال جوفاء لامعنى لها . وقصارى القول أن التاريخ تحول دائم وصيرورة متواصلة وتعاقب لانهاية له فى الفعل ورد الفعل والاحياء والتدمير والتجديد أو كما قال شكسبير « قصة صخب وغضب لاطائل تحتها » وكما قال هيرقليطس فى قديم الزمان ـ كل شىء فى تحول ولا يسبح انسان مرتين فى مجرى واحد . فالمياه فى تجدد وجريان دائم ، على أن القول بأن التجارب والاختبارات النسبية مفاتيح معرفة التاريخ معرفة حقة وتقدير الممثلين على مسرحه تقديراً صائبا ، لأحدى المعتقدات التى ليس من المحتمل أن تفقد قوتها ومبلغ تأثيرها .

السياسة كعلم

وليست هذه فرصة البحث . بل تتساءل هل هناك علم للسياسة ؟ فقد كفانى السير بولوك فى كتابه البديع « تاريخ علم السياسة » مؤونة البحث فى ذلك وهل هناك اتصال حقيقى بين الجسم السياسى وبين الجسم الطبيعى؟ وهل سيحدث تقريب مابين الطرق والعمليات السياسية وبين الطرق والنهج فى علم الحياة؟ فقد يستخدم السياسى عبارات البيولوجى ويتكلم فى الأجنة والحرائم والأجسام الحية ، فى حين أن الحق كل الحق فى جانب هؤلاء الذين يؤكدون أننا لم نصل إلى مايقرب من التكوين الصحيح لعلم للسياسة مبنى على القواعد الاستقرائية . وليس ذلك بسبب يمنع السياسى من الاستنتاج الصحيح وفق الاسلوب العقلى أو يمنع المؤرخ من البحث وارتياد مناطق العلم المجهول بالهمة المنظمة وسلامة الضمير والصراحة والحرص على الحقيقة ، تلك الصفات التى كانت رائد دارون وابطال العلوم الطبيعية

وأن العلوم السياسية لينتابها نفس الضعف الذى إذ أصيب به علم الاقتصاد السياسى فى مستهل القرن التاسع عشر . إذ كان الجو الخاص بها قد استشف استشفافا غريبا . والرجل السياسى النظرى تلابسه نفس الصفة المصطنعة كالتى تحيط بالانسان النظرى كما يتصوره الاقتصادى . وقد تصور المفكرون الفرنسيون فى أيام فولتير وجود هذا الانسان

فى الصين أو الفرس أو أية بلد من البلاد المختارة التى لم يدروا عنها شيئا فى الواقع أكثر من درايتهم بكنداحين وصفوا الحرب بين انجلترا وفرنسا بالسخف والسخرية كنزاع على آلاف من الاميال المربعة من الثلوج الدائمة. وقد زدات معارفنا الآن. غير أن معايير الدافع الانسانى مازالت تطبق بطريق التعسف على كل ماهو مستبعد فى الزمان والمكان فالقيمة الاخلاقية ليس لها من الاعتبار أكثر من ضروب الزينة وما زالت شئون الانسان محصورة فى وصف الآلة السياسية وسيرها دون اعتبار كافة أنواع الوقود الاجتماعى الذى تتوقف عليه قوة السير والدفع والتغير فى نمو الافكار الجديدة ونفاذ النظم السياسية وقوتها فى التعبير عن الآراء الحديثة . كل ذلك يعتبر أمراً ثانويا أو يهمل شأنه كلية . فطرق البحث التى اختطها الاستاذ ديسى فى كتابه عن العلاقة بين القانون والرأى فى القرن الثامن عشر ، تستحق أن نحذو حذوها . اذ أن ذلك من المحتوم . ومتى تصورنا العلم بهذا الشكل تحقق لنا أن قيمة الاوضاع السياسية يجب أن تقاس بما تأتى به لنـــا ، اذ يجب أن تعبر عن أغراض «دولة» ايا كانت وتلائم فكرتها الحية وذلك بأوسع المعانى ، وآمل أن ليس فى ذلك مايعد جحوداً لفضل طائفة من الكتاب فى هذا البلد ممن تملأ مؤلفاتهم خيراً قيما فى أية مكتبة فى هذا الميدان الهام : ومن بينهم جرين وبولوك ودايسى وهو بهاوس وبوز انكويت وولس . ولايحسبن أحد أن التفسير والبحث فى الدولة ومتشعب علاقتها بالفرد ليسا بالشىء المادى أو مما لا طائل تحته

فمن المعتبر أن محاولات فريق من قادة الرأى الفرنسيين فى تصوير وتقديم نظريات الالمان الخاصة بالدولة فى لباس فرنسى، هى السبب المباشر فى نشأة «السنديكالزم»(١) وانتشارها فى فرنسا

السياسة والقانون

والسياسة بالمعنى الذي صورتها فيه تختلف عن القانون فى أن الاخير يميل الى وضع الافكار فى قالب خاص وروضها على التقيد بأوضاع محدودة . بينما علم السياسة متى تناولناه وفق المنهج الصحيح دائب على تغيير شكل هذه الاوضاع وتوسيع مداها وفحص السبل التى بها تلائم هذه الاوضاع الحقائق الجارية بيننا . ولذا فهو أوسع من القانون مدى ، اذ يمكننا القول بأن عمله يبدأ حيث ينتهى القانون وهو بدوره أضيق فى اتساعه عن علم الاجتماع اذ يبدأ بافتراض وجود الدولة بكل مايتبعها من حقوق وسلطات وواجبات .

يتبع

---

١ مذهب تجمع العمال المنظم فى نقابات وعمال .